

رفيقة بي عطوفاً عليّ، تعزيني وتسليني وتفتنّ في ذلك ما وسعها الافتنان. وأنا أعرف لها هذا فأحمده وأقدره وأردُّ عليها بعض ما كانت تسدي إليّ من جميل، فأنصرف إليها حين ألقاها عن هذه الخواطر، ويفرغ قلبي لما أسمع من حديثها ولما أشاركها فيه من درس، ولكن لا ألبث أن أعود إلى ما كنت فيه من وجوم وذهول، وتحس هي مني ذلك فتتنصرف عني بعض الشيء وتتركني لما أنا فيه، كأنها تقدر أني أجد في هذا الوجوم والذهول لذة وراحة واطمئناناً.

وما تزال هذه الخواطر تلح عليّ وتستأثر بي حتى تستحيل إلى شيء من الرغبة القوية الملحة في أن ألقى هذا الشاب فأسمع منه وأحدث إليه، وأنا أتلمس أخباره وأتتبع أسرارها وأتلقط ما يلقى عنه من حديث، ولم تكن داره بعيدة من دارنا، وكأن الظروف قد ائتمرت بي فهيأت لي أن أرى زهابه ومجيئه من نافذتي حين يغدو من داره أو يروح إليها، من هذه النافذة التي طالما كنت أبادل أختي منها الإشارة وأسارقها منها بعض الحديث، من هذه النافذة التي لم أذكرها ولم أدنُ منها حين عدت إلى الدار، وإنما مكثت أياماً وأسابيع أجهلها جهلاً وأهملها إهمالاً، ثم خطرْتُ لي فجأة، وفُرض عليّ مكانها فرضاً، فإذا أنا أدنو منها وجلة وأفتحها جزعة محزونة، أريد أن أفق إليها لأتمثل فيها صورة «هنادي» ذاهبة جائية، متغنية بما كانت تتغنى به من أغاني الريف ثم أغاني المدينة. وإنني لأخذ موقفي من النافذة في الأيام الأولى فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً، وإنما هو قلب ينفطر، ودموع تنهمر، وصورة لأختي لا تأتي من الدار ولا تعبر إلى ما بيني وبينها من طريق، وإنما تأتي شاحبة حزينة من قلبي هذا الأسف الحزين. وأنا مع ذلك أطيل الوقوف إلى النافذة وأكرره، وأدنو منها كلما أتيج لي الدنو في النهار حيناً وفي الليل أحياناً. ألفها وتألّفني، حتى أصبح وقوفي منها وجلوسي إليها عادة طبيعية من عاداتي كلما دخلت الحجرة وأغلقت بابها من دوني. والأيام تمضي وتتبعها الليالي، وإذا أنا أقف إلى النافذة وأجلس إليها فلا تنهمر الدموع، ولا تتمثل لي صورة أختي شاحبة كئيبة، وإنما أنا أرى أمامي وأنظر، فإذا صورة أختي كما كنت أعرفها تذهب وتجيء، صوت أختي ينتشر في الفضاء فيملؤه فرحاً ومرحاً وبهجةً وسروراً، متغنية بهذه الأغنية التي طالما كانت ترددها بصوتها الرخيم الممتلئ العذب فيحملها الهواء إلى النفوس كأنها قطرات الندى: